

مذكرات معلم حر

أ. الأمين بشيشي

مدير مدرسة الحياة سابقا بسدراتة

توطئة:

عندما حصلت على الشهادة الابتدائية من المدرسة الكولونيالية عام 1940، عبرت لوالدي الشيخ بلقاسم اللجاني عن رغبتني في مواصلة الدراسة حتى أكون طبيبا. واستغربت أن أسمع من والدي الذي كان دوما يشجعني، رفض هذا التخصص العلمي بصورة قاطعة، ولما استفسرته عن سبب معارضته الصارمة، قال لي:

لقد عدت في 1911 من مصر بعد دراسة في الأزهر دامت ست سنوات كما أعلمتك، ورست بي باخرة العودة إلى عاصمة الجزائر، وكنت متلهفا لملاقاة إطارات جزائرية أحدثها عن الغليان السياسي والاجتماعي داخل الطبقة المستتيرة بمصر. ووجدت ضالتي في طبيبين جزائريين لم أجد لديهما أي إحساس قومي، بل بالعكس. كان رد فعلهما عندما يقترب منا مستفسر عن أي أمر أو متسول يستجدي مساعدة، يردان السائل بعبارات مليئة بالاشمئزاز والاحتقار.

وقد تكرر هذا الموقف المزري طوال وجودي بصحبتهم. وإني لا أقبل أبدا أن تتكون في مدرسة تجعلك تستصغر بني قومك أو تحنقر بني جلدتك.

وتبخرت أحلامي في أن أكون ضمن الطبقة الأرستقراطية لأن المهن بدأت تتقلب رتب أصحابها منذ ذلك العهد. فالنجم اللامع في ذلك العصر القريب البعيد كان الشيخ الذي تدين له الرقاب، ويتلهف الناس لسماع ما يصدر من فيه، وكذلك المعلم الذي كان بوقاره الأمثل في الملبس والسلوك، يحظى باحترام وتقدير الجميع لأنه كان نبع العلم ومصدر المعرفة للصغار يربيهم ويرعاهم مثلما يرعى البستاني الأزهار في الروضة يسقيها بين الفينة والأخرى وينزع من حولها الأشواك والأعشاب الضارة.

أما الطبيب فكان قطب الأقطاب، فلم يكن في سدراته آنذاك إلا طبيب واحد أحد اسمه SABADINI يقرن بين الخدمة العمومية في المستشفى الصغير وبين عيادته الخاصة. كما كان يقوم مقام الصيدلي إذ هو الذي يقرر نوع الدواء اللازم للمريض وهو الذي يسلمه له بمقابل أو بغير مقابل حسب الحالة.

ولم يكن لي من مناص سوى التتهّد بزفير حار مفاده: وداعا يا دكتور لم يتمتع ولو بصفة برعم في الاختصاص وفي التمتع بالمنزلة الرفيعة المبتغاة.

ودخلت في ليلين ليتهما كانا شبه ما دخلهما من تمنيت أن أكون بدله عندما قال:

ودخلت في ليلين فرعك والدجى

أما أنا فدخلت في ليلي حالكات قاسيات من البعد عن عش الأبوين العطوفين، كما عشت شتى المغامرات، أعترف أن بعض الومضات الخاطفة كانت تنير أحيانا ليلي الموحشات .

المحطة الأولى: تبسة

كانت الرحلة الأولى إلى تبسة التي تسلمت مشعل الجامع الأخضر بعد وفاة الإمام عبد الحميد بن باديس، وكان الشيخ الشهيد العربي التبسي نعم الخلف على رأس مدرسة تسمى مدرسة تهذيب البنين والبنات. واسمها غني عن كل شرح.

وصادف أن هبت على المدينة في تلك السنة (1941) عاصفة ثلجية واكبها انتشار وباء الحمى الصفراء (Typhus) راح ضيحتها المئات بمن فيهم طبيب المدينة نفسه. وكنت يافعا فاحتضنتني عائلة قوامها زوج وزوجة عاقرين، وكانا من المصلحين واسمه محمد بن عيشة وزوجته أميمة كنت عندهما الابن المدلل.

وبقدر ما كانت أميمة تهتم بملبسي ومأكلي، كان بعلمها مهتما بدراستي، يستفسرنني كل مساء عما قرأته في ذلك اليوم.

وكان يلح علي أن أفصل له ما قرأته تفصيلا بحيث ينزعج عندما لا أوفق في تميز النطق بين الظاء والضاد مثلا. للعلم، فإن دروس "الجزرية" وهي كتاب خاص بجودة إلقاء الحروف الهجائية ينفع أساسا المقرئين، كنا مجبرين على معرفة مخارج الحروف - حروف الحلق، حروف التقخيم، حروف القلقة إلخ، وكان أستاذ هذه المادة الشهيد الشيخ السعيد الزموشي لا يتسامح أبدا مع الطلبة في هذه المادة التي كنا نعتبرها ثانوية خلافا له.

أتممت السنة الدراسية بنجاح مع زملائي من سدراته وكنا ستة وعشرين طالبا وتلميذا من بينهم أربعة كانوا أقراني في السن. وقد غطت هذه المرحلة فترة العام الدراسي 1942/1941 تفرقنا بعد ذلك شذر مذر.

المحطة الثانية: جامع الزيتونة (تونس)

قرر والدي أن أشد الرجال بعد ذلك إلى تونس، وكان قبل أي سفر لي، يضع يده كل مرة على رأسي قبل الرحيل قائلا: **أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.**

وكان الوصول إلى تونس آنذاك عويصا لضرورة الحصول على جواز سفر أو رخصة خاصة كانت تعطي فقط لمن عضه كلب مسعور، فسرعة الوصول إلى **معهد باستور بتونس** كفيلة بإنقاذ المصاب، خلافا **لمعهد باستور بالعاصمة الجزائرية** الذي كان أبعد عن سدراته بضعف المسافة تقريبا، مما يعني الهلاك المؤكد للمصاب.

أذكر أن عددا من الشباب الراغبين في زيارة تونس الفسيحة، كان يجرح بساقه عمدا بشوكة أو يبيضع فخذة بسكين ويموه بأنه تعرض لعض كلب مسعور فتتطلي حيلته ويستفيد بسرعة من وثائق تسمح له بقطع الحدود والمكوث بتونس ثلاثة أسابيع لأن العلاج عبارة على إحدى وعشرين حقنة يومية من مصل خاص.

ومادمت ذاهبا لطلب العلم وليس للراحة والاستجمام أو الاستحمام، فقد سلكت مع زميل لي من سدراته الطريق الذي نصحونا باتباعه، وهو تبسة ثم العبور إلى بلدة **بوشبكة** ثم بلدة **قلعة جردة**، وعندها، تصبح تونس العاصمة وجامع الزيتونة قاب قوسين أو أدنى من مرامنا.

قطعنا الحدود بسلام مشيا على الأقدام طبعاً، وفي وضح النهار، وكان قلبي يدق دقا خوفا من الإخفاق، وما لاحت لنا قراميد منازل بوشبكة حتى انتصب أمامنا عنصران من الجندرية الفرنسية كأنهما من العفاريت الخارجة توا من باطن الأرض وأخرجنا بسرعة الوثيقة الوحيدة التي بحوزتنا وهي بطاقة التعريف، وسجل الدركيان مخالفة لكل منا تديننا لعبورنا الحدود بدون رخصة، ثم - يا فرحتنا - أخلينا سبيلنا وقت أن كنا ننتظر إجبارنا على العودة من حيث أتينا مكبلين بالسلاسل.

وواصلنا المشي على الأقدام مهرولين جذلاتين حتى وصلنا أول محطة قطار، لم يبق في ذاكرتي اليوم بعد حوالي ثلثي قرن من تلك المغامرة سوى أسماء محطات توقف عندها القطار الذي كنا نركبه:

أذكرها من غير ترتيب: **قلعة جردة، قعفور، ماطر، طبرقة، مجاز الباب منوبة** وهي على ما أعتقد آخر موقف لقطارنا قبل نهاية رحلتنا، المحطة المركزية لتونس العاصمة.

ودخلت عالما آخر، قابلت فيه طلبة جزائريين على وشك التخرج، ودلّنا أحدهم على "مدرسة" نقيم فيها. وكلمة مدرسة ليست مكانا للدارسة بل هي مأوى للطلبة الغرباء عن المدينة الذين يأتون لمزاولة التعليم في جامع الزيتونة.

فقد كانت **مشيخة الجامع الأعظم** كما كانت تسمى إدارة جامع الزيتونة مدعمة بتشجيع كبار القوم في الإيالة تحفز المحسنين من الأثرياء على بناء ما يمكن اعتباره فنادق لإيواء القادمين من الطالبين للعلم. والتحق بي أخي الكبير محمد البشير الذي سبق له أن درس فترة في جامع الزيتونة عامي 1937-1938 وانقطع بعد الأحداث الدامية في 9 أبريل 1938 بتونس.

وبعد اختبار بسيط، تم قبولي في السنة الثانية المعروفة بسنة "**القطر**" وهو اسم كتاب هام في النحو عنوانه الكامل "**قطر الندى وبلّ الصدى**" يحدد المستوى اللغوي للتلميذ. وكان طلبة هذا المستوى يزاولون دروسهم كلها في **جامع القصبة** بأعالي العاصمة التونسية وعلى مقربة من ثكنة عسكرية يحتلها الجنود الفرنسيون طبعاً، لأن النظام في تونس إذا كان يتمتع بسيادة صورية إلا أن تقاليد الأمور كانت كلها بيد الدولة الحامية أي فرنسا.

وقد طرق مسمعي آنذاك بأن باي تونس، اغتناماً للأوضاع التي كانت تعيشها فرنسا الواقعة هي نفسها تحت الاحتلال الألماني، يحاول أن يغير أوضاع بلاده كدولة محمية. فعبرت عن رغبتني لأخي محمد البشير لزيارة قصر الباي ورؤيته إن أمكن، وتم ذلك فعلاً في يوم جمعة من أواخر أشهر أكتوبر 1942، وذهبت إلى مدينة **حمام الأنف** حيث قصر الباي، وحضرنا مراسم شروع الباي في نشاطه اليومي.

بدأت فرقة من عازفي الآلات النحاسية في عزف السلام الملكي ثم قطعاً موسيقية أخرى، وكان الحرس الخاص يقوم ببعض الحركات، لفت انتباهي لباسهم الأحمر القاني وخوذاتهم النحاسية أعطتني الانطباع بأنهم جنود مطافئ، لكن المهابة والجلال ظهرا عندما طلع سمو **المنصف باشا باي** على شرفة القصر وهو يحيي الجمهور ملوحاً بيده ثواني معدودات ليختفي وراء الستائر مبتدئاً حسبما قيل لنا اجتماعه اليومي مع وزرائه ومستشاريه.

لا أخفى أنني بكيت بكاء أكثر من مر، فيه فرحة وأسى، عندما رأيت النجمة والهلال يرفرفان أمام عيني في حين لا مكان في سماء الجزائر إلا لعلم أجنبي يجسم سلطة باغية وحضارة لا علاقة لها بحضارة أجدادي.

لم أتعرف بعد على تونس وأكتشف أبوابها: باب منارة، باب دزيرة، باب جديد، باب بحر، باب الخضراء ولا أسواقها المليئة بالحيوية، سوق العطارين، سوق البلاغجية، سوق البلاط حتى حدث ما لم يكن في الحسبان.

قوات المحور في تونس

يوم الأحد 8 نوفمبر 1942 طائرات مقاتلة سوداء تحلق فوق رؤوسنا على ارتفاع منخفض جدا، يصدر منها صفير مزعج.

كنا نستعد في ذلك اليوم للذهاب للملعب البلدي بتونس لمناصرة فريق مولودية وهران الجزائري تحت قيادة مدربه السيد دراوي الذي يتأهب لمقابلة فريق الاتحاد الرياضي التونسي الذي كانت له الصدارة على رأس الأندية التونسية.

لكن قبل موعد المباراة بساعتين تقريبا، حُلّقت فوق أجواء العاصمة التونسية أسراب متلاحقة من الطائرات المقاتلة تكاد تحصد أسقف المنازل لانخفاض مستوى ارتفاعها، يصدر منها صفير مرعب.

كانت تلك طائرات القنص الألمانية المعروفة باسم شتوكاس « STUKAS » التي أتختت في جيوش الحلفاء وعتادهم، ودخلنا رغم أنوفنا في الحرب العالمية الثانية، وكانت مرحلة من أثرى ما عشت في حياتي.

دخل جنود المحور (ألمانيا وإيطاليا) التراب التونسي بينما احتل الأسطول الأمريكي وقوات الحلفاء أرض المغرب والجزائر بجيوش جرارة.

واجتمع طلبة الزيتونة من الجزائريين في مدرسة نهج الباشا مقابل حمام القشاشين قرب الجامع الأعظم وتبادلوا الرأي فيما ينبغي اتخاذه من مواقف تبعا للظرف الجديد خصوصا بعدما سارع قادة الحزب الدستوري التونسي إلى تنظيم صفوفهم في غياب الزعيم بورقيبة المسجون في مرسيليا على ما أذكر، وأصدروا جريدة بعنوان تونس الفتاة تولى رئاسة تحريرها أحد أبرز النشيطين في الحزب اسمه الحبيب ثامر.

أما كبارنا نحن، وكنا غير مهيكليين، فقد منعهم حماسهم من أن يفكروا بهدوء، ومما زاد الطين بلة أن مجموعة كبيرة من البحارة الجزائريين المجندين في البحرية الفرنسية فروا من مركز القيادة في مدينة تولون TOULON وجأؤوا مسرعين إلى تونس على متن بارجتين حربيّتين، وزارنا عدد منهم في مدرسة نهج الباشا، وعبروا عن قرارهم الالتحاق مع قطعهم الحربية بالقيادة الوطنية الجزائرية؟! أجل، هكذا قال كل من ضابط الصف بوسبسي والبحار أحمد جدي باسم زملائهم الآخرين التائهين، بعد استيلاء عناصر فرنسية

مناهضة للحلفاء وإشعال النار في أغلب قطع الأسطول الفرنسي المربط في مدينة (قولون)، التي كانت مركز قيادة البحرية الحربية الفرنسية.

وانتظر البحارة يومين أو ثلاثا، وكانوا ثمانين تقريبا ثم أدركوا ألا قيادة وطنية جزائرية ولا يحزنون. فغادروا تونس في اتجاه الغرب وقال لنا بوسبسي بمرارة وكذلك أحمد جدرى الملقب بـ BOUBOUL: لم يعد لنا سبيل آخر سوى الاستسلام لجيش "فرنسا الحرة" بقيادة الجنرال دي غول.

إثر هذه الحادثة، قرر كبار الطلبة بالزيتونة تكوين حزب ثوري سمي **الحزب القومي الجزائري** كان له جناحان، جناح سياسي أذكر من بين أعضائه عمي النوادي وهو جزائري ثري يلبس دوما قندورة من الحرير الخالص وعمامة ناصعة البياض وكان ممول الحزب، والسيد بولخراس وكان طالبا في السنة الأخيرة، والسيد بورنان وكان تاجرا، وسي الناصر وكان يتميز بالحيوية والنشاط.

أما الجانب العسكري فكان فيه سي الحسين المقراني وإبراهيم بن العيد بن عمر وأحمد عبد العزيز، والشيخ مصباح حويذق ومبروك العزابي وأخي محمد البشير بشيشي وحمّ صالح، وكان الطالب أحمد حماني ضابط اتصال بين التنظيم الجزائري والقيادة الألمانية في تونس.

هذه المرحلة تستلزم بابا خاصا إن لم يكن كتابا كاملا، خصوصا وأنا أستذكر من بين ما أستذكر **اللفيف العربي**.

اللفيف العربي:

عرفت في تلك الفترة مجموعة من المتطوعين العرب في الجيش الألماني يقودهم ضابط عراقي برتبة ملازم يقدم نفسه دائما باسم **الملازم المدني**، وكان يتردد على عناصر الهيئة الجزائرية المسؤولة، وكان يرافقه جندي من اللفيف اسمه الصبيحي لعله كان فلسطينيا.

كان الملازم المدني نائب النشاط والاتصالات، وقد عقد اجتماعا سريا هاما في مكان اسمه دار **الجلد** بأعالي تونس العاصمة أعتقد أنه كان مقرا للنقابة التونسية لم يسمح لي طبعاً بحضور هذا الاجتماع ولا غيره لصغر سني، لكنني كنت أعلم بفحوى ما يدور.

خلافًا لما كان في أذهان الجميع بأن استقلال الجزائر وتونس ومختلف البلدان العربية الراثة تحت الاحتلال البريطاني أو الفرنسي سيأتي عن طريق **الريخ الثالث** (ألمانيا)، فإن الملازم المدني كان في كل لقاء خاص أو عام يفند هذا الاعتقاد ويؤكد أن هذا ليس سوى مجرد تضليل وتمويه. ولما قدمنا له صورة وزعتها مصالح الدعاية الألمانية تظهر المفتي أمين الحسيني في جلسة مع هتلر، أكد لنا بأن الصورة

مفبركة وأن القائد الألماني رفض رفضا باتا مقابلة الزعيم الفلسطيني أمين الحسيني رغم إلحاح هذا الأخير في الحصول على موعد، خصوصا وله فيلق يحارب إلى جانب الألمان ممثلا في هذا الليف العربي.

كنت أحس بسعادة كبرى حين أرى الجنود الألمان يحيون الملازم المدني كلما اعترضهم في الطريق وهو بلباس الجيش الألماني وعلى كتفه شارة تحمل عبارة ARABISH LEGION .

وأعود لدراستي، لأنني مازلت في سنة "القطر" غير أن التعليم أصبح مشوشا بسبب الغارات المتكررة من أسراب طائرات SPITFIRE الإنكليزية وطائرات B52 الأمريكية.

لعل عددا ضئيلا من زملائنا سكان تونس العميقة التحقوا بأهلهم وذويهم، غير أن طلبة آخرين جازفوا وبقوا يزاولون الدروس بانتظام.

كنا حين نسمع ثلاث طلقات مدفعية، نفهم بأن الطائرات المغيرة على الأبواب فنغادر حلقة الدرس بسرعة ونأوي حيثما اتفق ونبقى في المخبأ حتى نسمع صفارة الإنذار التي تبشر بأن الخطر زال وأن الطائرات المغيرة قد عادت أدراجها.

وهنا أذكر الشيخ معاوية التميمي، من كبار علماء الزيتونة، وكان بدينا للغاية، لذا عندما يرى الطلبة يفرون من حوله كالعصافير عند الإنذار بالخطر، وهو لا يقوى على فعل ذلك، ينظر لهم وهم يهربون ويقول:

وفي الهيجاء ما جربت نفسي ولكن في الهزيمة كالغزال

أمرت **مشيخة الجامع الأعظم** مراعاة للأوضاع الخاصة التي يمر بها الطلبة خلال الدراسة وسلمت شهادات النجاح لجميع من بقي يتابع الدروس رغم قسوة الجو العام الذي تلطف كثيرا بفضل قرار إنساني من **المنصف باشا باي تونس** الذي بعث أمرا كتابيا للمسؤولين على الأوقاف بأن يدفعوا أسبوعيا لكل مسجل يدرس مهما كان بلده مبلغ مائة وعشرين (120) فرنكا وكان مبلغا يغطي كل ما يلزمنا من ضروريات وأكثر.

وضعت الحرب أوزارها في تونس وانتقل لهيبتها إلى أوروبا وعدت سالما إلى عائلتي التي تنفست الصعداء ظانة أنني كنت في عداد ضحايا أطنان القنابل التي كانت ترميها أسراب الطائرات العابرة لأجواء سدراته، وصلى أبي نوافل كثيرة وذبح الأضاحي فرحا بمقدمي من خطوط الحديد والنار. وكان هذا في أواخر شهر ماي 1943.

ومر الصيف بسرعة والعطلة مثله مرت كخطف البصر، وظننت أنني - جراء ما عنيت - سأرتاح سنة كاملة، لكن والدي أصر على عودتي للدراسة بل أجبرني على إعادة سنة "القطر" رغم إظهاره له

الشهادة التي تخول لي متابعة الدراسة في السنة الموالية. وأذعنت لأمر والدي الذي أقنعني بأن قوة الهرم تكمن في قاعدته وليس في قمته كما قال.

وواصلت دراستي بصفة عادية ثلاث سنوات حصلت خلالها على الشهادة الأهلية، وكنت عند انتهاء كل سنة دراسية أعود إلى سدراته، وأعلم بعض الراغبين قواعد النحو والصرف على الخصوص وأتناقش مع أبناء قريتي الذين يدرسون في ثانوية الكدية بقسنطينة وكان برنامجهم ثريا بل مثقلا، فالتخصص الأدبي مثلا يفرض على الطالب - إضافة إلى اللغة الفرنسية طبعاً - دراسة اللغتين اللاتينية واليونانية. ويبدأ الحديث على التخصص بعد الحصول على شهادة البكالوريا، ويدورون حول ثلاث مهن لا رابع لها بالنسبة "للأهالي" وهي الطب، الصيدلة، المحاماة ولا شئ غير ذلك. وكنت أقول في نفسي هؤلاء لهم الخياريين ثلاثة اختصاصات، أما خريج جامع الزيتونة فلا مكان له سوى التعليم الحر أو الإمامة في مساجد القرى والمدن إن اقتنع المصلون بمستواه الفقهي.

دخول ميدان الفن:

وتتدخل الأقدار لتفتح لي باباً لم أكن منتبهاً إليه رغم ميولي الطبيعي لولوجه باب الفن أو بعبارة أدق: الموسيقى.

وإذا كان من الواجب الاعتراف لأصحاب الفضل بفضلهم فإنني لن أفتأ شاكرًا للأستاذ الفنان الدكتور صالح المهدي الذي كان على أهبة التخرج من جامع الزيتونة، وكان في الوقت نفسه أستاذًا للموسيقى في المعهد الرشدي، وعازفاً ماهراً على آلة الناي.

كنا نلتقي به مع نخبة من الطلبة الجزائريين في مقر جمعية "الكوكب التمثيلي" التي كان ينشطها الأديب والمسرحي المتمكن السيد محمد الحبيب. كنا نعد للقيام بجولة فنية في الجزائر لعرض مسرحية طارق بن زياد قصد جمع أموال للطلبة المعوزين، وكان يشرف على العملية زميلنا الوقور وأخونا المبجل المناضل "سي عبد الحميد مهري".

في فترة راحة من التدريب على المسرحية، توجه السيد "صالح المهدي" إلى الأخ مهري قائلاً: تاتون إلى تونس لتعلم قواعد النحو والصرف والبلاغة، والتفقه في الدين من عبادات ومعاملات ولكنكم لا تهتمون بالفنون التي ليست لها صفة الجمالية فقط، بل هي من صميم العلوم. أنا على استعداد لتسجيل عشرة من الزيتونيين الجزائريين في المعهد الرشدي المتخصص في الموسيقى التقليدية التونسية إلا أن التدريس يتم عن طريق القواعد العلمية والصولفيج وليس عن طريق التلقين اللهم إلا لبعض المغنين.

ودخلت مع سبعة من زملائي متطوعين لتعلم الموسيقى، وجذبني التيار بشدة بحيث كنت كلما ذللت صعوبة في العزف على آلة الكمان إلا وعقدت العزم على تذليل صعوبة أعوص، وهكذا زحزحني التيار خارج جامع الزيتونة وتم فصلي منه بعد غياب ثلاثة أشهر متتابة حسب اللوائح والقوانين السارية المفعول في الزيتونة.

مجيئ مفاجئ لوالدي إلى تونس

وبدا لأحد أبناء قريتي من الزملاء أن يرسل والدي ليعلمه بأن ابنه زاغ عن الطريق، فجاء والدي مسرعا إلى تونس، وقد كلفه ذلك الكثير، واستفسرني عن أسباب فعلتي، ظانا بأني خلعت جلباب الجد والوقار ولبست أسمال المجون والعبث، ولعل الليالي الملاح ربما أفقدتني نهج الصراط المستقيم.

لكن المواجهة الصريحة أقنعتني بأني متيم بالموسيقى لا غير، وأن الفارابي والكندي وابن سينا مصابيح خالدة في حضارتنا، ووافقتني رحمه الله وأرضاه على التخصص فيما أهوى وأريد، شريطة أن أتم دراستي التي جئت من أجلها إلى تونس حتى أحصل على شهادة التخرج.

وعدت إلى حلقات الدرس، واجتهدت كي ألبى رغبته دون أن أنقطع عن ممارسة العزف على آلة الكمان التي برعت في العزف عليها، وأصبحت عنصرا أساسيا في فرقة المنار بقيادة الفنان النابغة "رضا القلعي" ثم في فرقة الخضراء بقيادة الفنان القدير "قدور الصراري" فضلا عن جوق الرشيدية بقيادة الأستاذين "صالح المهدي" و"محمد التريكي". وأحيانا أخرى في فرقة الإذاعة المركزية.

وأغتنم معرض الحديث لأحيي الأستاذ الإيطالي نيكولو بونورا (Nicolo Bonura) الذي كان له الفضل الأكبر في سيطرتي التقنية على آلتني المفضلة: الكمان.

نهاية الحلم اللازوردي

وتقدمت للامتحان الحاسم الذي يسمح لي بنيل شهادة التحصيل على العلوم، ونجحت، ولم يبق لي من سبيل سوى العودة إلى سدراته لمحاولة تحقيق الاتفاق بيني وبين والدي الشيخ بلقاسم الذي أعد بجانب المسجد الحر الذي بناه، مدرسة ذات ثلاثة أقسام سميت مدرسة الحياة.

وكان يوم عودتي إلى البيت بالشهادة يوم فرح لا يوصف بالنسبة لوالدي الذي لم يكتف بذبح كبش أو خروفين، بل عبر عن مدى غبطته بذبح ثور عظيم. وأقيمت اللائم وجاء القاضي والداني للتهنئة، وكانت عينا والدي تغرورقان من فرط التأثر لسماع كبار القوم يطرونني وينتظرون أن أكون عالما فقيها أكبر من الشيخ بلقاسم والدي.

وتحمس الناس الموسرون للمساهمة في تأثيث المدرسة. وعبثا حاولت تذكير والدي بالاتفاق، فقد كانت والدتي شرسة إلى أبعد حد في معارضتها لامتهاني الموسيقى قائلة: أنا لا أقبل أبدا أن يقال " ولد الشيخ رجع مداح" والمداح هو ذلك الراوي المعروف في أسواق المداشر والقرى وحتى في البوادي يحكى بمصاحبة آلة الرابابة مغامرات سيف بن ذي يزن، وأساطير السيد علي وراس الغول، وملحمة الفاتنة الريفية الجازية والفارس بوزيد الهلالي وأساطير وحكايات مشوقة أخرى. وأصرت على موقفها ولامت والدي على ما اعتبرته تساهلا مذنبا في تربيتي ذا أثر سلبي على مستقبلي حسب رأيها.

ولم أذعن فرجعت إلى تونس طمعا في الالتحاق بالوسط الفني الذي أعرفه ويعرفني، لكن المقاومة اشتعلت نيرانها بعد إلقاء القوات الاستعمارية القبض على الزعيم التونسي الحبيب بورقيبة الملقب بالمجاهد الأكبر. وتوقفت الحركة الفنية تماما، ولم يعد هناك من نشاط سوى مقاومة سلطات الاحتلال الفرنسي الجاثمة على صدر تونس وشعبها، تماما كما هو الحال في الجزائر، بل الوضع في الجزائر أدهى وأمر.

وقفلت راجعا إلى سدراته، وذكرني والدي بالآية الكريمة في سورة التوبة " فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون"

ولبست ثوب المعلم وأخذت زمام مدرسة الحياة مع اثنين من الزملاء الزميل عبد العزيز زمزم والشيخ بلقاضي بشيش.

كانت شبابيك القسم واسعة، وكان التلامذة - فتيات وفتيانا - متحفزين لمتابعة الدراسة بجد. وكان تلامذة القسم الذي أحمل شخصا واجب تلقينهم المواد المختلفة عبارة عن كتيبة مجاهدين لما يتمتعون به من وعي وحسن استعداد، وكان ذلك الأمر بالنسبة لي شبيها بالأرض الكريمة التي ينمو زرعها بسرعة وتعطى ثمارا زكية.

كانت دروس مادتي التاريخ والتربية تستقطب انتباه التلامذه وأغلبهم قد بلغ سن الرشد، وكان الشيخ بلقاسم يرقب سير الدروس بصورة خاصة عن طريق ما يبلغه من تقارير أولياء التلاميذ الذين كانوا حريصين على نجاح أولادهم ذكورا وإناثا.

ووجدت في حسن استعداد التلاميذ وفي تشجيع أوليائهم ما أنساني بعض الهموم الآتية. وعوضت عزف الكمان بتلقين تلامذتي أنشودات تربية وأناشيد وطنية كان لها وقع كبير في نفوسهم وكانت نعم المتنفس لي في حياتي الجديدة القديمة وتقمصت تماما لباس المعلم شكلا وروحا. ولم أعد أعيش إلا لمدرسة الحياة التي كانت نعم المخبر لترسيخ مبادئ الوطنية والسلوك القويم: اسمنت المجتمع.

وقد أكرمتني الجمعية التي تتولى تدبير شؤون المسجد والمدرسة فخصصت لي جناية شهرية تبلغ خمسة عشر ألف فرنكا (15.000 فرنك)، وسجل والدي هذا الأمر بارتياح كبير وهو الذي لم يتقاض مطلقا في حياته أي سنتيم أو مليم مقابل قيامه بالتدريس والإمامة في مسجد بناه أهل القرية بمبادرة منه على مدى عقود لعسر حال المواطنين ولرفض الشيخ أية مساعدة من السلطات الفرنسية.. وكان يقول بافتخار أن مسجده يعد من المساجد الأربعة عشر الحرة في القطر الجزائري.

مرحلة التدريس والإمامة معا

ولزم والدي الفراش، فتحتم علي استخلافه في المسجد كإمام واعظ بإلحاح من المصلين مع التزامي بالتدريس وإدارة مدرسة الحياة. ووجدتني مكبلا بالأصفاة عندما لفظ أنفاسه الأخيرة يوم 7 سبتمبر 1954 أي قبيل اندلاع الثورة التحريرية بسبعة أسابيع. لقد كان في تحديد مصير حياتي أقوى منه ميتا كحي.

وصرت عمليا رب العائلة الجديد ليس بوصفي فقط أكبر أفراد العائلة وإنما بحكم استفادتي بمرتب شهري قار، يضمن لأمي وأخواتي وأخوتي الصغار قوتهم اليومي، ووسائل التدفئة في زمن البرد القارس في سدراته خلال أشهر الشتاء القاسية ولياليه الطويلة.

وضاعفت جهودي لإيقاظ النفوس الخاملة في وسط الناس كما ضمنت التعبئة العامة وسط تلامذتي بحيث كان الجميع على استعداد لتلبية نداء المنادي حين دقت ساعة الحسم وكان الجواب **حي على الكفاح أو لبيك يا صوت الجزائر الحرة المكافحة**.

واستشهد العديد من تلامذة مدرسة الحياة بعد ذلك في ساحات الوغى وهم في ريعان الشباب أترحم على منصور قجوح، يوسف روكاس ومن لم تحضرني أسماؤهم، كما أحي قدماء التلاميذ عبد الوهاب ومصطفى بشيشي، محمد الصالح رواق، عبد الحكيم عبيد، الصادق حمراوي، اللموشي، حداد وبنات بوخشة وغيرهن.

وبقدر ما كان تلامذتي يتابعون الدروس ويتابعون التوجيهات، بقدر ما كان الناس في المسجد يتلقون بقناعة تامة شحنات خطب الجمعة التي كانت تقوي عزائمهم أمام التصرفات الرعناء لعناصر السلطة المحتلة وتزيدهم إيمانا بأن ساعة الباطل ساعة، وساعة الحق إلى قيام الساعة.

وكننت، عندما تحتّم عليّ ظروف خاصة التغيب يوم الجمعة، أبعث بالخطبتين إلى الإمام المستخلف سي أحمد بن الأحباسي ليقوم بواجب إلقائهما.

أما مدرسة الحياة فلم أغب عن تلامذتها أبدا حتى غادرت سدراتة في ظروف سأشرحها.

بالرغم من أن السلطة الحاكمة لم تكن ترى بعين الرضى ما أقوم به سواء كمدرس أو كإمام مسجد، إلا أنها كانت تحاول استمالتي بشتى الطرق الشيطانية.

مرحلة المواجهة:

عين حاكم مدني جديد على رأس بلدية سدراتة وكانت تضم ما لا يقل على ثلاث دوائر حالياً، مداوروش، أم العظايم وسدراتة نفسها. كان اسمه NAVARRE من عائلة يبدو أنها أعطت لفرنسا قادة كثيرين في الجيش الاستعماري، وكان ضابطاً في سلاح الفرسان.

جاءني أحد أعوانه ليقول لي بأن الحاكم الجديد يريد أن يزورك في بيتك يوم كذا على الساعة كذا، فلم أتعلل، ووافقت على الموعد الذي حدده بنفسه.

قدم في الموعد، وحياني بحرارة، وجرى بيننا الحوار التالي:

الحاكم: بلغني أن لديك سمعة عند الناس عموماً، ولذا جئت لأحييك كرجل دين، فأنت إمام البلدة، وأود أن تعينني على وضع حد لأعمال المضللين ودعايتهم الهدامة.

قلت: لم أفهم من هم المضللون؟

الحاكم: أنت تعلم أن جمال عبد الناصر الرئيس المصري وضع يده في يد الشيوعيين وبهذه الصفة فإنه لم يعد مسلماً. فمناصر الإلحاد ملحد في رأي الدين الإسلامي ويعتبر مرتداً. لذا وجب التشهير به حتى لا ينجر الناس وراء إذاعته المسماة "صوت العرب".

قلت: إذا كان في الديانة الكاثوليكية أمر شرعي يسمح للبابا بطرد كاثوليكي من المسيحية لإرتكابه خطأ جسيماً فأنا لست بابا (PAPE) من جهة، والدين الإسلامي لا يسمح لأي إمام مهما كانت منزلته أن يكفر مسلماً، لأن لا رهبانية في الاسلام.

الحاكم: أنا لا أطلب منك البتة أن تصدر فتوى ضد جمال عبد الناصر لكنني أطلب منك الحضور بجانبني إلى اجتماع شعبي عام أشرح فيه السياسة الهدامة لهذا المسؤول العربي الذي أصيب بوباء الإلحاد والعياذ بالله. وأنتظر منك إما الإيماء بالرأس تركية لما أقول، أو التزام الصمت.

قلت: مهمتي محصورة في المدرسة والمسجد وليس لي مكان آخر أتردد عليه مطلقاً، وشكرته على زيارته وعلى تقديره لمكانتي في المجتمع، وتواعدنا على اللقاء ثانية.

وبعد حوالي أسبوعين، جاءني أحد أعيان سدراتة وقال لي لقد زرت الحاكم اليوم، وعبر لي عن غيظه منك، قلت لماذا؟ قال: لأنك لم ترد الزيارة.

وحدد لي موعداً، واستقبلني في مكتبه، وجرى بيننا حوار قصير أسجل منه الأهم:

الحاكم: أنت بلا شك تعلم القول المأثور خاف من الله، وخاف من اللي ما يخافش الله بمعنى:

اخش الله، واخش من لا يخاف الله

قلت: جاء في القول المأثور عندنا: رأس الحكمة مخافة الله

أما من لا يخاف الله، فالخوف عليه، لا منه. وانصرفنا وأنا الحظ في نظرتي الحقد المجسم والكره الدفين، وأدركت أنني لمست الخط الأحمر.

الجدير بالذكر أن هذا المسؤول قبل تعيينه على سدراتة، كان يمارس مهمته كحاكم في أحد أقاليم الصحراء، وكان ليس فقط معرباً، لكنه كان يحفظ "دليل الخيرات" وهو كتاب أدعية منتشر في الزوايا، وكان يجلس في حلقات الذكر يردد معهم الأدعية والأذكار إلى درجة أن السذج منهم كانوا يؤكدون بأن بركة شيخ الزاوية نزلت عليه وشملته، فدخل الإسلام.

كان أحد تلامذتي واسمه محمد عبد الرحمن يقوم بالاتصال مع فريق الثوار بقيادة من كان يلقب نفسه الطاهر الأسود واسمه الحقيقي الطاهر عرفة، استشهد في معركة شهيرة بنواحي تابرقة تابعها على متن هليكوبتر الوزير الفرنسي ماكس لوجون MAX LEJEUNE وقتل خلالها خمسة وأربعون جندياً فرنسياً أصيبوا كلهم برصاص في الرأس أو في الصدر حسبما ذكرته جريدة لوموند Le Monde آنذاك مشيرة إلى دقة التصويب عند المجاهدين.

الاستفزاز والتهديد:

وخرجت صبيحة أحد الأيام في اتجاه المدرسة فاعترضني ضابط عسكري اسمه Commandant GIRAUD عيّناً حديثاً لمواجهة الثورة في نواحي سدراتة. وكان هذا الضابط من العناصر الذين تدربوا على ملاحقة المحاربين فيما كان يسمى الهند الصينية وقد بلغنتي أخبار عن سلوكه المتهور، كان إذا حياه أحد بيده اليمنى يقول له: لماذا لا تحيني بيدك اليسرى أو بالاثنتين معاً؟.

قلت اعترضني وقال لي: لماذا لا تحيني أنت كبقية الناس؟ واقتادني إلى مركز الشرطة، فحياني المفتش Lasbeseille قائلاً: صباح الخير السيد الإمام فتظاهر الضابط GIRAUD بأنه لم يعرفني وأصر على وجوب تحيته، فقلت له: متى رأيت رجل دين يبادر بتحية غيره أياً كان وفي كل زمان ومكان، فلفظ من لهجته وقال لي: من واجبك أيها السيد الإمام أن تعيننا على حفظ الأمن، وعلى إلقاء القبض على "الفلاقة المجرمين" الذين يعيشون في الأرض والعباد فساداً.

وفي إحدى الليالي، سمعت صوت طلقات نارية مكثفة أعنف مما كان يحدث بين الفينة والأخرى، وعند وصولي للمدرسة في الصباح رأيت آثار الرصاص ليس فقط على جدران المدرسة وخاصة في جهة نافذة القسم الذي اعلم فيه، ولكن أيضا على طول ارتفاع صومعة المسجد. وكانت الحفر غائرة مما يدل بأن المدفع الرشاش كان من النوع الثقيل 12/7 على الأقل.

وأخذت مأخذ الجد هذا الإنذار، واتصلت بالإخوة في الجبل، وأعتقد أن القائد حينذاك كان المجاهد محمد البوقصي فنصحوني بمغادرة سدراتة فورا للإلتحاق بأهل الإعلام ما دمت أكثر نفعا للثورة بالقلم منه بالبنادق. وعينت لاستخلافي على رأس المدرسة زميلي عبد العزيز زمزم الذي استشهد في العاصمة عام 1959. وفي المسجد سي أحمد بن الأحباسي كإمام، وفي التنظيم الثوري لمنطقة سدراتة المأسوف عليه السعيد عبيد تقبله الله إلى جواره.

وشددت الرحال إلى تونس يوم 2 سبتمبر 1956 حيث شاركت مع جمع من الزملاء القدامى في نشر الطبعة (ج) من جريدة المقاومة الجزائرية التي صدر أول أعدادها في تونس يوم فاتح نوفمبر 1956. كما ساهمت إلى جانب أخي الراحل محمد عيسى مسعودي في تنشيط البرنامج الإذاعي الذي يحمل عنوان "صوت الجزائر" على أمواج الإذاعة التونسية.

مرحلة التعليم الثانية:

بعد العودة إلى الجزائر المستقلة، وتحملتي بعض المسؤوليات، وجدتني في ربيع 1966 أعود إلى التعليم ثانية. وليس في هذا العرض مقام لذكر الأسباب التي أدت إلى ذلك. فنحن في العالم الثالث وما نزال، رغم التحسن الملحوظ.

لم تكن في شهر أفريل مناصب شاغرة، لكنني وجدت منصبا كأستاذ مستخلف للغة العربية في إكمالية تحمل اسم أورلي التجاني (AURELIE TIDJANI) في حي باب جديد بالعاصمة، وكانت المديرية فرنسية اسمها إن لم تخني الذاكرة مدام روني Mme ROUNET.

وشمرت عن ساعدي، وربطت بسرعة علاقة وطيدة مع التلامذة، فتيانا وفتيات، وكنت أرغبهم في تعليم اللغة العربية رغم أن المعامل كان ضعيفا بالنسبة للعلوم والرياضيات.

كنت أهدي كتيبات تحكي قصصا بسيطة مشوقة، مزينة بصور ملونة للتلامذة الذين يجيبون عن الأسئلة دون خطأ أو ينجحون في فك التمارين بصورة جيدة.

لكنني لاحظت أنهم عند خروجهم لفترة الاستراحة القصيرة، يتغنون مع زملائهم الآخرين بأنشودات باللغة الفرنسية.

فأدركت أنني أحرث في الماء، إذ ما فائدة دروسي إذا كان الفتيان والفتيات يعبرون عن مشاعرهم باللغة الأجنبية. وتذكرت ماضي الموسيقى، ووجدت العزم الكافي لمطالعة أكبر عدد ممكن عن كتب القراءة والمحفوظات لأختار منها النصوص ذات اللغة الميسرة. وبدأت تجربة التلحين، وجاء الفرج بانطلاق البرنامج التلفزيوني الشهير "الحديقة الساحرة" الذي كنت ملتزما فيه بتقديم أنشودتين جديدتين أسبوعيا. وكان رفقائي في هذا الدرب المضيء كوكبة من المثقفين أذكر على رأسهم الشيخ محمد الأخضر السائحي الذي وهبه الله ملكة الأسلوب السهل الممتنع في الشعر خصوصا وقد كنت أستتجد به لنظم ما يناسب البرنامج المدرسي الذي يفرض مراكز اهتمام محددة، إذ لا يمكن أن تشرح درسا على فصل الصيف وأنت في عز الخريف أو الشتاء.

واني لأنحني إجلالا لهذا الشاعر الملهم الذي كان - خلافا لغيره - يغير المفردة أو صدر البيت أو العجز أو حتى البيت كله نزولا عند رغبتني، ولا يرى مانعا للتغيير تلبية لطلبي كمعلم وكملحن تواق إلى الكمال.

ولست أنسى طبعا صديقي ورفيق دربي في هذه التجربة الثرية منشط حصّة الحديقة الساحرة الأستاذ عبد الله عثمانية، وكذلك الأخوين صلاح الدين الشريف والأستاذ حمزة المستشارين التربويين، وكذلك صانع عرائس القراقوز حميدي السعيد، وحببي الأطفال النادي والبادي بلباسهم المزركش البديع.

نسيت أن أذكر بأنني انتقلت من إكمالية أورلي التجاني في آخر العام إلى إكمالية حيدرة لقربها من منزلي لكن الأخ سي عبد الرحمن شريط الذي كان أمينا عاما لوزارة التربية تذكر أنني درست الموسيقى فانتدبني للقيام بمسؤولية التنشيط الثقافي على الصعيد الوطني، مما فتح لي آفاقا واسعة. وعدت بقدرة قادر إلى حبي الأول: الموسيقى.

إشكال حاد حول معامل اللغة العربية

لكنني لن أمر هكذا مرور الكرام دون أن أروي حادثة وقعت بيني وبين مدير مدرسة حيدرة السيد ز.ع.. بسبب معامل اللغة العربية. كنا في مجلس الأساتذة في ختام الثلاثي الأول من السنة الدراسية 68/67، وكان الأساتذة الفاعلون فرنسيين في الغالب ومعهم بعض الخانعين المؤيدين لرأيهم. تكلم المسيو Lassale أستاذ اللغة الفرنسية منبها إلى أن معامل المادة الفرنسية لا يمكن أن يكون أدنى من (2) فتدخلت وقلت: وكذلك العربية. قال لي السيد المدير لا يا أستاذ، معامل اللغة العربية واحد (1) فقط. قلت: لم نقم بثورة إلا لتحل اللغة الوطنية مكانها ومكانتها في بلدها. ورد علي قائلا، اسمع يا هذا نحن

في مجلس أساتذة ولسنا في اجتماع خلية الحزب. لا مكان هنا للسياسة، قلت: أنت الذي تمارس سياسة خاطئة، فأوقف الاجتماع.

وفي صباح اليوم الموالي وأنا مع تلامذتي في القسم، دق باب القسم، وطلب مني الخروج ففعلت. ووجدت مقابلا لي شخصا متشنجا إلى أقصى حد ربما لم ينم ليلته لشعوره بالمهانة أمام الأساتذة خصوصا وهم الأخصائيون في التزلف والتملق يوهمون ضعاف الشخصية من المسؤولين بأنهم ذوو شأن.

قال لي والبصاق يتطاير من فمه: كيف تجرؤ أن ترسل كشف النقاط بمعامل (2) في حين قلت لك أن اللغة العربية معاملها (1)؟ أجبت بأن اللغتين العربية والفرنسية سواسية في قوانين ولوائح وزارة التربية. قال لي هات البرهان! قلت أنت المدير أنت المكلف بهذه الأمور، أما أنا فأستاذ فقط، دوري يتلخص في تدريس اللغة العربية.

ورفع سبابته في وجهي منذرا إياي بالشر المستطير وقرب أصبعه أكثر إلى وجهي، ومس أنفي بقوة قائلا لي بالفرنسية: يا صعلوك إنك تتناول على مديرك بكل وقاحة. فلم أدر كيف انطلقت يدي بسرعة البرق وهوت على وجهه فسقطت نظارته السميكة، وانحنى باركا كالناقة يبحث عنها. وقلت له قبل أن أعود للدرس، إياك أن تعود ثانية إلى اسفزاز من يقومون بواجبهم بإيمان واقتناع بدورهم التربوي.

بقي التلاميذ يحدقون في وجهي، وتجاسر أحدهم قائلا: لقد سمعنا كل شيء، قلت: رجاء تصرفوا كأنكم لم تسمعوا شيئا.

ولم تنتقض الصبيحة حتى وصلتني برقية صفراء اللون أي رسمية تعلمني بأمر التوقيف عن التدريس حالا، ويستدعيني السيد مفتش الأكاديمية الأستاذ بن بليدية للمثول أمامه، لكنني قوبلت من طرف نائبه السيد واعلي الذي لاحظ من هندامي ومن حديثي أنني لست ذلك "لمعرب الوضيع مصدر المشاكل كل يوم" حسبما وصفني السيد المدير في تقريره، وقال لي المفتش: أما وقد وقع ما وقع، فنحن مجبرون على التفريق بينكما. التحق بالأكاديمية فنتال مرتبة أعلى وتحصل على امتيازات مهمة قلت: أنا شاكر لكم هذه اللفتة الكريمة، انتقالي من مكان عملي معناه أنني أخطأت والمخطئ الحقيقي هو المدير الذي تجاوز حدوده مرتين: المرة الأولى عندما جاءني وأخرجني من القسم وأنا أدرس للتلامذة وكان من الألبق أن يستدعيني في مكتبه عندما يحين وقف الاستراحة.

والثانية أنه يجهل اللوائح والقوانين لأنه متكون في المدرسة الاستعمارية التي حجبت عنه الحقائق الجديدة. إن الجزائر مستقلة، وأن للغتها أن تعود لها السيادة.

وأصر مفتش الأكاديمية السيد بن بليدية على نقلي من حيدرة واستدعاني إلى مكتبه وكان معي الزميل القديم في الزيتونة والمجاهد الصارم الأخ سي ابراهيم مزهودي الذي كان يحتل منصب المفتش العام للغة العربية بوزارة التربية.

وعبثا حاول مفتش الأكاديمية إقناع المفتش العام بأنني أجمرت، وقام بتلميحات مغرية لأقبل مغادرة حيدرة مقابل ترقية فلم يفلح.

في تلك الأثناء تجمهر تلاميذي دون أن أدري في المدرسة وخرجوا في مظاهرة جابت ميدان حيدرة، وزاروني في بيتي طالبين مني العودة إليهم، وإلا تصرفوا كما تملهم عليهم الأوضاع. ونصحتهم بالهدوء مؤكدا لهم أنني لست معاقبا، وأني سأعود لهم بعد يوم أو يومين من الراحة.

وسارت الركبان كما يقال بهذه الحادثة التي فرضت نفسها علي، واتصل بي العديد من أساتذة اللغة العربية ومفتشيها مؤيدين ومباركين، وفي مقدمتهم المناضل الراحل سي حسين بالميلي عليه رحمة الله.

بقي الأمر على ما هو عليه، أواصل التدريس، ويواصل المدير مهامه بحذر، يتحاشى الاختلاء بي خوفا مما لا تحمد عقباه. وخلافا للعادة، أشرف المفتش السيد أمحيص شخصا على مجلس الأساتذة بمدرسة حيدرة، تحسبا لاحتمال وقوع شجار يطغى فيه الوكر على اللكر.

وانتهت تلك السنة الدراسية بسلام، وتأكد أن معامل اللغة العربية اثنين () لا واحد (1). ونقل المدير إلى مدرسة أخرى. واستأنفت التدريس في نفس المدرسة مدة أسابيع ثم التحقت بالوزارة كما أسلفت، مشرفا على التنشيط الثقافي، الموسيقى أساسا. وتلك تجربة أثرت حياتي العملية أيما إثراء. وأعود الآن إلى الأنشودات وكيفية انتقائها.

أسلوب انتقاء الأنشودات

مادمت خرجت من التدريس لعدد محدود من التلاميذ في قسم أو قسمين، لا يصل عدد المزاويلين سبعين أو ثمانين تلميذا، وصرت بفضل الشاشة الصغيرة أصل إلى مئات الآلاف من الأطفال ذكورا وإناثا. فإني أحسست بضرورة إتباع منهج محكم، مرغّب لا منفر.

البداية كانت دائما حسن اختيار النص الأدبي، وانتقاؤه بدقة فائقة، لأن الأنشودة هي أولا وقبل كل شيء النص الأدبي. وما اللحن والموسيقى إلا كساء لذلك الكيان يبرز ما هو كامن فيه من زقة وكمال. وأعترف أنني لم أجد أي عناء في تلحين العشرات من الأنشودات لأن النصوص المنتقاة كانت تحمل هي ذاتها لحنا في تراكيبها اللغوية والعروضية.

أنشودة المطر مثلا، بحثت وطالعت العديد من الكتب المدرسية لأجد ضالتي، وما دمت مقتنعا بالنص الأدبي يأتي لحنه منسابا كماء جدول رقرق.

وتأتي المرحلة الثانية، وهي المخبر العائلي وكان لي في تلك الفترة أربعة أبناء: بنتين وولدين، أجمعهم وأحاول تلقينهم الأنشودة الجديدة مستعينا بآله العود. وأطلب رأيهم في النهاية.

فإذا زكوا بالإجماع تحولت إلى المدرسة لتلقين مجموعتها الصوتية الأنشودة المزكاة. وإذا عبر أحد أبنائي عن عدم الرضى الكامل أو عن تحفظ، أو حتى بالسكوت، فإني أقبر اللحن، وأعيد تلحين الأنشودة بأنغام أخرى.

تنبيه محرج ومفيد

حدث في صيف عام 1968 أن نظمت وزارة التربية الوطنية تربصا لمعلمين ومعلمات مرشحين للقيام بالتنشيط الثقافي لفائدة تلامذة المستويين الابتدائي والمتوسط. وتم هذا التربص مدة شهر كامل بمدرسة بمدينة شرشال. وكان المسؤول العام الأخ الودود الأستاذ سي عبد الله عثمانية.

كلفني شخصيا بالإشراف على الجانب الموسيقي. ولما لم يبق من أمد التدريب سوى ثلاثة أيام، فتحت حوارا مع المتربصين لتقييم فترة التدريب.

استحسن الجميع ما تعلموه من أنشودات، ومن عزف على بعض الآلات خاصة البيانو إلا واحدا عبر عن أسفه لكون العديد من المواضيع لا يستطيع أن يستغلها قائلا: تعلمنا أنشودات عن الربيع، عن المصيف والسباحة في البحر، عن المطر، عن الثلج، لكنني من مدينة أدرار الصحراوية ولا علاقة لأطفال منطقتنا بما تعلمناه.

وأحسست بالخجل وكأن حجابا حال بيني وبين ما سبق أن حفظته عن ظهر قلب روائع محمد العيد آل خليفة والأخضر السائحي ومفدي الذي يقول:

وفي صحرائنا تبر وتمر كلا الذهبين حل بها وطابا

واتصلت في اليوم ذاته عن طريق الهاتف بالشيخ السائحي الكبير وطلبت منه على عجل نصا حول النخلة، أو الجمل أو كثران الرمال المثقلة أو الحادي إن كان على رأس القوافل في صحرائنا حدادة للعيس.

وزودني شيخ الشعراء في الليلة ذاتها نصا لطيفا عن الواحة. أتممت تلحينه عند مطلع الفجر، ولم ينفذ جمع المنشطين حتى حفظوها جميعا وأضيفت إلى رصيد الأنشودات التي سوف يتغنّى بها أطفال الجزائر في جنوبها وشمالها.

خاتمة:

وعلى كل حال واستخلاصا لمسيرتي في مجال التعليم منذ عهد التعليم الحر، إلى التعليم الرسمي في الجزائر المستقلة، فإنني أحمد الله الذي ألهمني محبة أبناء وطني، ولغة وطني الرقيقة البليغة ووفقني في اختيار مجموعة النصوص والألحان التي أحس باعتزاز كبير وأنا اسمع مجموعات أطفال وشبان بلادي يرددونها بحماس - وما أزال إلى اليوم أبحث عن لحن مناسب للأنشودة التالية التي أجعلها مسك الختام، والتي نظمها لي مطلع عام 1974 الأديب المسرحي الكبير ألفريد فرج، وما أزال غير مقتنع بالألحان التي صغتها لها منذ ذلك العهد حتى اليوم، وعنوانها "الحروف العربية" :

الحروف العربية

عندما كنت صغيرا
وأعاني من صعوبات الكتابة
قال لي الأستاذ: " انظر...
"هل ترى حسن الحروف العربية؟"
"قائمة ممشوقة في كبرياء
"وانحناءات جميلة
"وترانيم تغني للعيون
"وتزكي العلم والشعر وأنوار الحقيقة
" فوق أوتار مشوقات لجسات رقيقة!"

هكذا أحببتها..

هكذا رنمتها..

هكذا أكتبها..

ألحروف العربية.

عندما كنت صغيرا

وأعاني من صعوبات القراءة
 قال لي الأستاذ: " أنصت..
 "أولا تعلم أن الكلمات الفلسفية
 "تستهي أن تتزيا بالحروف العربية

"أعذب الألحان تشتاق الحروف العربية.
 " أعذب الأشعار ترنو لعيون عربية.
 "والتواشيح الشجيه
 "أطلقت آهاتها الأندلسيه
 " في غرام بالحروف العربية !"

هكذا أحببتها..
 هكذا رنمتها..
 هكذا أقرأها..
 الحروف العربية.

عندما صرت كبيرا
 وتذوقت الحروف العربية
 وتعلمت أسوي في الهوى عيدانها
 باقة خضراء زهراء تغني
 لحبيبي مع أحلى الكلمات
 وعلى بسمته الحلوة اقرأ..

هكذا أحببتها..

هكذا أقرأها..

هكذا أكتبها..

الحروف العربية.

تعقيب لا بد منه

إن كان ولا بد من ربط الحاضر بالماضي، فإن جميع الناس يلاحظون اليوم الاستخفاف بالحرف العربي إلى درجة تردي لغة الخطاب في أوساط الجماهير العريضة من الشعب بحيث أقحمت مفردات أجنبية عن البيئة وعن التقاليد السمة في لهجاتنا، وصار شبابنا يتغنى بمواضيع هزيلة إن لم نقل أكثر، قوامها لغة هجينة، وأبيع لمنتجي الأشرطة الصوتية (K7) وحتى لمنتجي برامج الإذاعة والتلفزيون المؤسسات الرسميتين استعمال لغة لا أصل لها ولا فصل. مما يحتم على المسؤولين في مجالات التربية والتعليم والثقافة والشباب والرياضة، وحتى على عناصر الأدب الشعبي التصدي بحزم لدحر هذه الظاهرة الخطيرة فعلا، التي إن لم يجدوا من يضع حدا قاطعا لها، فإنها ستفضي ليس فقط إلى تهديم إحدى الركائز الأساسية الحساسة من مقومات شخصيتنا، ولكنها ستجعل من شعبنا العظيم كيانا لقيطا حضاريا.

والمجلس الأعلى للغة العربية، رغم حاله وأحواله هو في رأينا فارس هذه المعركة الاستراتيجية، وقائد فيالقتها الواعية في أوساط جنود مخلصين في قطاعات التربية والتعليم والثقافة والشبيبة والرياضة وخاصة في المدرسة - الجامعة الكبرى: التلفزيون والإذاعة بمختلف قنواتهما.